مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 569 - 583

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

دور مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في إستراتيجية المقاومة عند إدوارد سعيد

The role of the resistance of Prince AbdelKader Al-Jazaery in Edward Said's resistance strategy

غانم جويدة

جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة (الجزائر)، samiraphilo_2007@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/05/01 **تاريخ القبول:** 2021/11/28 **تاريخ النشر:** 2021/12/30

ملخص:

يشكل حضور الأمير عبد القادر الجزائري في كتابات إدوارد سعيد بنية سردية كبيرة أعطت لسعيد عمقا كبيرا في قراءة واقع الإمبريالية بصفة عامة والإمبريالية الفرنسية بصفة خاصة، حيث بين أساليب المقاومة التي طوعها الأمير ضد الجنرال دوماس وبيجو الذي التحمت فيها المقاومة بالسيف والقلم على أن تكون ازدواجية الكفاح تقتضي الوعي بالميدان، والوعي بمضمون السرد الخطابي الذي كان يشكل جميع مفاوضات الأمير مع فرنسا.

إن تفكيك الإمبريالية الفرنسية من خلال الوعي بمقاومة الأمير عبد القادر لها،يقتضي الكشف عن عمق العلاقة في وحدة الكفاح بالقلم والسيف الذي قرأها سعيد من خلال فهم الفروق السردية بمطابقة كتابات الأمير عبد القادر الذي كان يسعى برسم اسم الجزائر في هوية وطنية موحدة، عكس ألبير كامو الذي ألغى اسم الجزائر من كل رواياته، ولم يعترف بوجود أمة جزائرية ،تمنى لها الطاعون المطلق.

كلمات مفتاحية: المقاومة، الأمير عبد القادر، إمبريالية، إدوارد سعيد، الجزائر .

Abstract:

The presence of Prince Abdelkader Al-Jazaery in Edward Said's writings constitutes a great narrative structure that gave Said a great depth in reading the reality of imperialism in general and French imperialism in particular, as he showed the methods of resistance that the Emir used against Melchior Dumas and Melchior Bugeaud, in which the resistance joined with the sword and the pen, provided that the dual struggle It requires awareness of the field, and awareness of the content of the rhetorical narrative that constituted all the correspondence of the prince France, The dismantling of French imperialism through awareness of Prince Abdelkader's resistance to it requires revealing the depth of the relationship in the unity of the struggle with the pen and the sword that Said read by understanding the narrative differences by matching the writings of Emir Abdelkader, who was seeking to draw the name of Algeria in a unified national identity, unlike Albert Camus. Who canceled the name of Algeria from all his novels, and did not recognize the existence of an Algerian nation, wished it the absolute plague.

Key words: Resistance, El Emi Abdelkader , Imperialism, Edward Said. , Algeria

مقدمة:

يعتبر المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد اسما لامعا في حقل الدراسات الكولونيالية وما بعدها، من خلال رصده لأهم المعالم والحيثيات المعرفية والإمبريالية التي خاضها الاحتلال في الوطن العربي ودول إفريقيا والهند ودول الكاريبي والمارتنيك، كما تعد تجربته النقدية لها من الحضور القوي في حقل التاريخ والأدب والرواية والمقاومة والنقد، ما يجعل نسقه الكتابي ينفتح على العديد من القضايا والمسائل التي عبرت عنها الثقافة الإمبريالية في أوج انتشارها في مناطق العالم الثالث، قد كانت الثقافة السعيدية تتسع في فضاءات مفتوحة من الدلالات القومية والسياسية والإيديولوجية التي لا يمكن أن نحددها أو نرسم لها حيزا إلا إذا استقرأنا فيما كتبه سعيد في مثل هذه القضايا.

قد تعانق في فكر إدوارد سعيد مرجعيات كثيرة من الغرب والشرق، وكان لهذه المرجعيات أن دعمت فكره بقراءة تركيبية تحليلية ذات طابع ابستيمولوجي خاص ومميز لفهم واستيعاب هموم الفكر والوطن، وكان للثورة الجزائرية نصيباً كبيراً في دراساته وأبحاثه، حيث أضافت له قراءة جديدة للمشروع الكولونيالي الفرنسي منذ (1830م)، إلى غاية ثورة نوفمبر الخالدة (1954م)، إلى جزائر ما بعد الاستقلال (1962)م، وقد كان لمقاومة الأمير عبد القادر الصدى الفاعل في تحيين فهوماته التفكيكية للكولونيالية، ومدى استغراقه في استنباط روح تجربته الخالدة، التي أعطت لسعيد حيزاً من الفهم الواسع لمشروع الثقافة الإمبريالية.

يغدو حضور الأمير عبد القادر في فكر سعيد دافعا لقراءة الامبريالية الفرنسية وخصوصيتها، من حيث مناهضة استراتيجيات الهيمنة التي فعلتها آنذاك على الجزائر ومحاصرة مقاومة الأمير عبد القادر في صورها الاجتماعية والثقافية والسياسية، كرد فعل على شرعية الدولة الجزائرية التي سعى عبد القادر لإقامتها، ومنع مسرودها من التحقق ضمن الرؤية المحلية والعالمية، ومحاولة إزاحة خرائطها في وعي التاريخ والتراث والجغرافيا.

إن التفكير في مقاومة الأمير هو التفكير في المسرود الامبريالي اتجاه شخصيته ومقاومته، وما يلفت الانتباه في الخطاب التاريخي للإمبريالية أنها حاصرت المشروع التحرري والاستقلال السياسي والجغرافي بتشديد الإخضاع والسيطرة على المسرود القومي الوطني الذي حاولت تفكيك مرجعياته وأصوله بتطويق عنفي حاد، آل إلى أن ترتكب الإبادات الجماعية بكل أصنافها، وتمزق الهوية الشعبية التي راهنت على النضال الصريح لكل أشكال الاستعمار الإجرامية.

شكلت مقاومة الأمير من وجهة نظر الكولونيالة الفرنسية تحديا رسميا للخطاب الاستعماري، حال لها أن تمزق الجغرافيا الوطنية وترهنها في امتلاك عبودي طوعي من الإقصاء والعزل التاريخي الفاعل أمام الأمم بقدر كبير من الضحالة والاستنفار التي صورت المقاومة الجزائرية بكثير من التواطؤ والتحريف في مواقف التاريخ والثقافة، وتأسيسا على ذلك انبثقت حالات موازية من الانزلاق الامبريالي الذي أراد أن يُخفي التغير التاريخي الذي فرضته المقاومة، والتي برهنت في كل مرة انسلاخها عن السياق العام الامبريالي، رغم كل المحاولات الهادفة في إخماد صوت الأمير عبد القادر،وإخماد تنظيم الدولة الجزائرية.بإقامة إصلاحات اجتماعية وتنظيم القبائل في وحدة وطنية أعجزت الجنرال بيجو وإداراته الاستعمارية أن تستوعب تنظيم دولة الأمير وان نجهض مخططات الدولة الجزائرية الوطنية.

من خلال هذه الأبعاد التاريخية والقومية للمقاومة الأمير عبد القادر،أعاد إدوارد سعيد قراءة هذه الأنماط التاريخية من زاوية النقد الثقافي لثنائية المستعمر والمستعمر، لتكون موضوعا هاما في تبيان طبيعة المقاومة والثورة والتاريخ والثقافة في مناهضة الاستعمار الثقافي والجغرافي الذي انبثق لأجل محاصرة الثورة الشعبية، الذي كان نتيجة هزيمتها هو ترحيلها للأمير عبد القادر ونفيه خارج الجزائر لاعتقادها في إخماد أساليبه المقاومة في التحرير، وقد رأى إدوارد سعيد مسالة المنفى الذي تعرض له الأمير من طرف فرنسا ورأى فيه ملازمة مع نفيه من طرق الصهيونية، التي رأت فيه جدوى لإسكات قلم التحرير وسيف المقاومة.

يبدو المنفى بلغته الكولونيالية مجالا إبعادا من المكان الذي تمركزت فيه الهوية، وتجسدت فيه تاريخية الإنسان بكل صورها وظروفها، والترحيل منه إجباريا وقسريا هو الأسلوب المناسب لقهر المقاومة ورجالها، لذا قارب سعيد قراءته للأمير عبد القادر بألبير كامو وكشف الفروق الهوياتية في النظر إلى الوطن والهوية، من زاوية تصوير الحقيقة الاستعمارية في كتباتهم ومواقفهم، بشكل حاسم ندرك من خلاله الأفكار المبتذلة للكولونيالية وجلاديها في سياق البنيوي للثورات وخيارات المقاومة الوطنية.

- فإلى أي مدى ساهم الأمير عبد القادر في إثراء لغة سعيد المقاوماتية؟
- على أي أساس فكفك سعيد الكولونيالية الفرنسية من منطلق قلم وسيف الأمير؟
- ما الدور الذي لعبه في التواصل الإنساني كمثقف وسيط بين المشرق والمغرب ؟

نستقرأ من خلال هذه الإشكالية أبرز الأهداف المرتجاة من البحث في كونه يهدف إلى :

- معرفة حضور الثورة الجزائرية وخصوصا مقاومة الأمير عبد القادر في كتابات إدوارد سعيد.
- إعادة النظر في التاريخ المقاومتي للأمير عبد القادر من زاوية دراسات ما بعد الاستعمار.
- معرفة سرود التحرير والمقاومة ومقارنتها ببنيات التاريخ والكتابة التاريخية.

إن تفكيك مثل هذه الموضوعات ومعالجتها يحتاج إلى المنهج التحليلي المقارن ضمن الدراسات الكولونيالية في مفهومها الطباقي يحتاج إلى معرفة النماذج الإدراكية لقضية من القضايا ورسم الموقف منها في صورة مفارقة لشبكة المفاهيم التاريخية والفلسفية التي تنبثق من سلسلة المواقف الثقافية التي لا تنفصل عن التاريخ والوطن والمجتمع.

1. أصلانية مقاومة الأمير من وجهة نظر إدوارد سعيد:

يتخذ سعيد من البحث التفكيكي في نسق المشروع الإمبريالي الفرنسي،وتحديد أهم ملامحه في رسم خطته الثقافية والجغرافية في الجزائر، على العديد من الفهومات والقراءات التي تستند على ذلك الفكر الأصلاني الذي تميز به الأمير في كشفه للغطاء المنافق الذي تميزت به فرنسا، عبر الكتابة والأدب والشعر تارة، وعبر السيف والمقاومة المواجهة تارة أخرى.

تنبثق الأصلانية (Nativisme)[1] من تلاقي القلم والسيف في مقاومة الأمير، ليضع حراكها العقلي في صدر القوة الفرنسية المدججة بأوفر الأسلحة التي قدمتها نتائج الحداثة لأوروبا، حيث حاولت تطبيق حصيلة هذه النتائج على مستعمراتها في الجزائر وفي جميع النواحي الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، لتثبيت سلطة الكولونياليين المحتلين، ولضرب أي مشروع مقاوم لهذا الغزو الشرس، ويرى سعيد أن رفض الشعب الجزائري لفرنسا والقوة والصمود الذي ظهر به الأمير عبد القادر يعود إلى استيعاب ذلك "الخلل في الميزان ما بين الشرق والغرب من دوال التغيير في الأنساق التاريخية، إذا كان الإسلام يسيطر يوما على الشرق والغرب جميعا في أوج أمجاده السياسية والعسكرية من القرن الثامن عشر حتى القرن السادس عشر،ثم انتقل مركز القوة إلى الغرب" (سعيد، 2006، ص.322)

وعليه اتخذت مقاومة الأمير تحديد المواقع المهمة في العملية الإحتلالية لفرنسا، وتقديم بديل مضاد لهذه المواقع، من خلال محصول الثقافة الجزائرية الواسع في دعم وجودها وكيانها المعرفي الثقافي والجغرافي اتجاه الروايات الإمبراطورية التي صنعتها فرنسا، والتي وصلت إلى ذروتها مع أعمال كامو وقصصه كالطاعون والغريب، حيث يقرأها سعيد في إطار خلفياتها الكولونيالية في شمال إفريقيا والتمرد، ومجموعة الروايات المغامراتية مع مختلف المشاريع الغربية المشاريع الغربية ليعزز قراءاته بأدب المقاومة في شعر عبد القادر المقاتل الجزائري العظيم في القرن التاسع عشر. (سعيد،2008، ص.172)

يلحظ ذلك التميز الذي صنعه الأمير في بناء إمكانات متكاملة للمقاومة ،إحياء ثقافة أصلية ميزت الجزائر منذ قرون وأعطت البدائل للمقاومة التي كانت حقيقية باسم الشعب، مثل أصلانياتها المتواجدة عند كل من الجبرتي[2] والأمير عبد القادر، الذي أعطى نفحا جديدا ومتميزا لقراءاته من جهة ولقراءة الطريقة التي واجه بها الإمبريالية الفرنسية، يقول سعيد: "أن المقاومة الثقافية للإمبريالية كثيرا ما اتخذت الشكل الذي يمكن أن نسميه أصلانية مستخدمة كملاذ خاص، ويجد المرء ذلك لا في الجبرتي فحسب، بل أيضا في البطل المبكر العظيم للمقاومة الجزائرية: الأمير عبد القادر وهو محارب من القرن لتاسع عشر تعهد نفسه، بينما كان يحارب جيوش الاحتلال الفرنسي بالتلمذة الروحية النُسكيّة على العلم الصوفي ابن عربي الذي عاش في القرن الثالث عشر". (سعيد، 1989، ص.329)

قد تنوعت ثقافة المقاومة عند الأمير عبد القادر من روابط عضوية حيوية شكلت المناخ الأصلاني لهوية الجزائر، وأنعشت قراءة هذه الثقافة من خلال مجال تجربتها الفذة التي عبر عنها الموقف الأميري الذي بينه صاحب كتاب (تحفة الزائر)في قوله: "كان الأمير يحسن السلوك مع رفقائه وسبيهم ويتلطف معهم في سائر الأمور ويخالطهم بنفسه ويؤثرهم عليها بكل ما كان يخص به من لذائذ الأطعمة ونفائس الألبسة، فقيل له في ذلك فقال الحال التي نحن فيها تقضي علي بذلك وعلى هذا كان أسلافي مع من يساكنهم ويصاحبهم فلا يقول أحدهم حصاني وبرنسي ومالي، بل يقول حصاننا وبرنسنا ومالنا ولا أريد أن أخالف أسلافي في شيء". (الجزائري، 1903، ص.07)

تميزت الأصلانية المقاوماتية بذلك التراث الثقافي، الذي استلهمه الأمير من بيئته وواقعه الذي أمده بطاقة لا يمكن حصرها إذا ما تم النظر إلى المعين الذي لا ينضب، خاصة في الفترة

الإحتلالية للجزائر،يستذكر في معرفة هذه الأصلانية ما كتبه الأمير للشيخ التسولي سائلا إياه عن مرجعيته في المقاومة والتي تمحورت في ذكره التالي: "جوابكم_أبقاكم الله_فيما عظم فيه الخطب، واشتد به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لقربان الكفر جزائره، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم، تارة بالسيف، وتارة بحبال سياستهم، ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب لهم الخيل ولا يبخل من دلالاتهم على عورات المسلمين ويطالعهم، ومن أحياء العرب المجاورين بهم من يفعل ذلك، ويتمالئون على الجحود والإنكار، فإذا طولبوا بتعيينه جعجعوا، والحال أنهم يعلمون منهم الأعين والآثار". (صالح، 1996، ص.102)

كان لهذا النص أثارا إستراتيجية عميقة على مستوى فكر الأمير من جهة وعلى المستوى المحلي الذي عاشته الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، الذي كان من أولوياته هو القضاء على التراث الثقافي الجزائري وتشويهه بالاستعانة مع المتواطئين المحليين والمجاورين للجزائر والغرض من ذلك حسب ما رآه سعيد هو أن المشروع الفرنسي في الاحتلال يقتضي "الصراع على الأرض (...) القضية فعليا هي قضية ما الذي ستفعله بعدما تحصل على الأرض؟" (سعيد، 2008، ص.228)

إن قوة الثقافة لدى الأمير عبد القادر، كونت قوة المقاومة لديه، حيث أن الناظر في طبيعة مواجهته لفرنسا ارتكز بالأساس على القوة الروحية التي منحته فرصا أكثر في التحدي لسياسات التمثيل، ويرى سعيد أن هذه السياسة كانت من بواعث الثقافة الأدبية الفرنسية التي سعت إلى بحث في مناطق يصمت فيها الإنسان الأصلاني وكان هذا المسعى الامتياز وتحديد القيام بهدفه بالضبط " في تلك اللحظة من عام 1830م، التي تقوم فيها فرنسا بتأمين إقليمها الإمبريالي الرئيسي، ينبثق هذا الإقليم (الجزائر) في إشارة ترندستاندالية يتيمة تدل على الخطر و المفاجأة ". (سعيد، 1989، ص.165)

كلما أمعن إدوارد في واقع المقاومة الأميرية وثقافتها، كلما امتلك مساحات واسعة في تحليل البناء الثقافي الوطني ودوره في المواجهة، حيث يصبح الأمير في قراءة سعيد ذلك الإنسان الواعي بأصالته وثقافته ووطنه الذي رسم له حدودا جغرافية صلبة اتجاه الغازي وحدودا معرفية روحية سائلة مع المشرق الذي كان يتوق إليه إلى أن أصبح هذا المشرق وطنه ومنفاه.

تكون هذه الأصلانية متحدية مجال التراتيبيات المتصلبة عليه، وترفض صمتها وترجمتها إلى غير موقعها الأصلي الذي هو (الجزائر)، وعدم الاستخفاف بتراثها القومي الذي نظّرت له المناقشات

الإمبريالية الفرنسية في محاولات لتوطينها للهوية القومانية الفرنسية،وينجر عن هذه المواجهة النزاع العسكري بين فرنسا وبين الجزائر، ويقول إدوارد سعيد: "مثلّها كل من المارشال تيودور بوغو والأمير عبد القادر، الأوّل ضابط عنيف ضار بدأت صرامته الأبويّة ضدّ الأصلانيين الجزائريين عام 1836م، كوسيلة لفرض النظام وانتهت بعد ذلك بعقد أو ما يقاربه بسياسة من الإبادة الجماعية والمصادرة الهائلة للأراضي، والثاني متنسك صوفي ومحارب فدائي لا يكل له عزم يعيد تجميع قواته وتشكيلها ونذرها إلى ما لا نهاية ضد عدو غازي أقوى، وأكثر حداثة." (سعيد، 1989،ص.ص.240، 241)

نلتمس روحية المقاومة في موقف الأمير اتجاه الإنشاء الفرنسي الذي عمل على أن تكون الجزائر فرنسية، دون مقابل في أن تكون فرنسا الجزائر، نستذكر في مقام هذه ذلك الانقباض الهوياتي الذي لاطف به الجنرال دوماس الأمير واعتقاله ونفيه إلى فرنسا ثم دمشق[3]، كونها البديل الأرحب للأمير ولأهل الأمير، فعرف الأمير بصفة أكثر، فظاعة الفرنسيين، عندما قال له دوماس: "يعتذر لكم الملك في عدم الوفاء والذي يحسن أن تسكن بلاد فرنسا وتعلى أماكن مناسبة لمقامك ويرخص لأهل محبتك من أهل الجزائر في الحضور عندك والسكن معك". (الجزائري، 1903، ص.06)

غير أن الأمير لم يتمالك نفسه نتيجة الضغوطات الفرنسية، ولكن بذكاء وحلم وهدوء ردّ على الجنرال دوماس[4] بقوله: "إني لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم ولا يمكن أن اترك طلب الوفاء بالعهد مادمت حيا ومن عجيب ما يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم وأخذتم تعددون علي أمورا قمت بواجبها ذبا عن دينا وحماية لبلادي ولازال التفاخر بها وبأمثالها قديما وحديثا، فإن القيام بها دليل على كمال الرجولية والعدول عنها برهان على ضعف الإنسانية". (الجزائري، 1903، ص.06)

كشف الأمير الغطاء الذي أخفاه كل من الجنرال دوماس وفرنسا، وأظهر نيتهما في التسلط والسلطان على الآخر، وبين الفرق بين ظاهر ما يقوله العدو وبين ما يخفيه من مؤامرات ودسائس وتعصب واستغلال وحب التملك، والملاحظ لحوار دوماس والأمير يلحظ كما يقول سعيد، اطراد الإنشاء الفرنسي والسعي إلى إعادة تجديده وذلك عبر دمجه ومأسسته في مثل هذه المواقف، أوفي تطبيقاته عل الجغرافيا، واعتقال فرنسا (لأمير) نابع من تلك الرؤية التوكيدية التي تقر بنوع من

التضامن الإنساني المخادع والساذج الذي يتطلب استعادته إلى الأسرة البشرية، وبنزع صفة النهب للذي ساهم في استعادته أي _فرنسا_ ومحاولة جعله من مخلوقات القانون الإنساني. (سعيد،1989، ص.243)

إنه القانون الذاتي الذي تلقفه الإنشاء الفرنسي عبر قادته اتجاه الأمير ومصير الجزائر، حيث بين هذا الحوار الفائق في الثقافة والمقاومة ما تخفيه البنى الشعورية الفرنسية من ظاهر إنساني، ومن باطن استطرادي طاغ في فرض العظمة الفرنسية على رمز من رموز الأصلانية الجزائرية، وامتلاكه يدل في القرار الفرنسي على امتلاك الجزائر الذي جهز لها القادة الفرنسيين حملات التطهير والتذويت، وفي هذا يقول سعيد: "أن تاريخ الجزائر من 1830 م إلى 1870م مصنوع من التظاهر والإدعاءات الزائفة، فثمة المستعمرون الذين زعموا أنهم يرغبون في تحويل الجزائريين إلى بشر مثلهم، فيما كانت رغبتهم الوحيدة في الواقع هي تحويل تربة الجزائر إلى تربة فرنسية، والعسكريون الذين يفترض أنهم كانوا يحترمون التقاليد وطريقة الحياة المحلية، فيما كان همه الوحيد في الواقع أن يحكموا بأقل جهد ممكن، وادعاء نابليون الثالث أنه كان يشيد مملكة عربية، فيما كانت أفكاره المركزية أمركة الاقتصاد الفرنسي واحتلال الجزائر". (سعيد، 1989، ص.242)

2. إستراتيجية رد الأمير عبد القادر على الثقافة الامبريالية :

يرى سعيد أن الخطاب المقاوماتي الذي تميز به الأمير،كان يعكس وبلا شك التراث الجزائري العميق الذي تجسد في استجابات متعددة ومفتوحة لنشاط هائل من مواقف الفكر والتاريخ والعقلانية ومواقع ثقافية لا تنفصل عن التجربة الحية لأدب المقاومة وفقه تحرير الأرض، حيث أرادت لها فرنسا مسحها كما تمسح الأراضي من طرف الأشكال اللاأخلاقية واللاعقلانية لخطط الامتلاك أراضي الأصلانيين الجزائريين وغيرهم، ما يقتضي في هذا الحال أن تقف الثقافة الند لند ضد مشاريع فرنسا الجديدة في الجزائر، التي أفصح عنها بيجو وضباطه "بالغارات التأديبية على قرى الجزائريين ،على بيوتهم ،ومواسمهم، ونسائهم، وأطفالهم، إن العرب كما يقول بوغو، يجب أن يمنعوا من بذر البذار، أو حصد المواسم، أو رعي مواشيهم". (سعيد، 1989، ص.241)

تستمر هذه المواجهة لتثبيت كل من الأمير وبيجو ثقافتهما، وتكون المعركة في الأساس تتمركز حول صناعة الإنسان الذي لأجله تحتل الأراضي، وتدمر البيوت، وتنمط الأفكار وتمسح الثقافات بحسب ما تراه الإمبريالية الفرنسية ملائما في وضع الرموز الإيديولوجية لصناعة الدولة

النموذجية عبر رصد العلاقة المتداخلة بين الرسم الجغرافي للأرض المستعمرة التي رسمت لها الإمبريالية لغتها الجديدة في المنفى والترحيل المجبر للأمير، ترحيله من الأرض الأم ومن ثقافته الأصلانية بمدلولاتها ورموزها لكي تجد في ذلك الفراغ ما يملأه من مظاهر كولونيالية قد ألزمت الأمير في أن يعيد النظر إلى "المعرفة نفسها في تلك الانعطافة الجارفة التي لم تعد تتحدد بمعانيها التقليدية المرتبطة بمسائل الدين والتراث وبالخبرات التي ظلت متداولة بين الناس عبر الأجيال، بل لقد باتت المعرفة تعني إلى ذلك كله أبعادا صراعيّة ولدّها حضور العدو على الأرض ودوسه للشرف وتهديده للوجود". (سليمان، 2009، ص.330)

يتساءل حينها الأمير عن طبيعة موضعته في المنفى وأسره ضمن ترجمة منزلقة في سياق من المفارقة للأهل والوطن والوفاء له من جهة، ومن جهة أخرى في ذلك الصمت الساكن المتحرك الذي لازمه في المكان الجديد الذي أجبرته السلطة الكولونيالية على تقبله، رغم قساوة الأسر ومحاصرة مسروده، إلا أنه عبر على أنه ليس خارج المكان، المكان الأصلاني الذي لم ينفصل عنه روحيا وفكريا، وكان لأشعاره الوجهة التي حركت مقاومته الثقافية فيما بعد، وموقع لها حضورا في إطار شبكة العلاقات العربية والعالمية واسعة النطاق، يعبر عن هذا الحال بقوله:

لَقَدْ حِرْتُ فِي أَمْرِي وَسرَتُ فِي حَيْرَتِي فَأَيَّ اَلْأُمُور ثَابِتٌ هُوَ لِي أَيٌّ

فَهَلْ أَنَا مَوْجُودٌ وَهَلْ أَنَا مَعْــدُومٌ وَهَلْ أَنَا ثَابتٌ وَهَلْ أَنَا مَنْفيٌ (الجزائري ع. ،2004، ص.34)

تتعانق تجربة المنفى عند كل من الأمير وسعيد، وتظهر من خلال هذا التساؤل عن المصير الذي آل إليه الشخص خارج مكانه الأصلي وهو في لحظة تتجاذبه العقوبة في منفاه، وفي الوقت نفسه تلاطمه أمواج الوطن ومآسيه، ليقف في تساؤل وجودي يُموقعه مرة أخرى بين هموم المنفى والبعد عن الوطن، ويصبح الشعر الذي ألفه الأمير و الذي أعجب به سعيد، أهمية بالغة في إعادة ترجمة الحال الشخصاني للمعاناة في لحظة الكولونيالية المعاشة،كما يصبح أداة لإخضاع الحس التاريخي إلى المواجهة الثقافية المباشرة ضد الكولونيالية، يقول سعيد في هذا النوع من المنفى "أن الصعوبة لا تكمن ببساطة في الإجبار على العيش بعيدا عن الوطن، بل الأصح مفترضا عالم اليوم، العيش مع أشياء كثيرة تذكرك أنك منفي، وان وطنك ليس بعيدا جدا (...) لذلك فإن المنفي يحيا

في حياة وسط ليس وحيدا تماما مع البيئة الجديدة ولا هو في تخلص كامل من البيئة القديمة، محاصرا بنصف ارتباط ونصف انفصال، مشتاقا إلى الماضي...". (سعيد، 2003، ص.62)

على هذا الأساس انطلقت القراءة السعيدية في استيعاب وقائع الإمبراطوريات في العالم، وكانت الأرض والتغلغل فيها أهم هدف في مشروع الإمبراطورية، كان تحضيرها هو القضاء على الإنسان فيها وذلك بتدمير كل رموز ثقافته كونها علامة امتيازه في إعلان الاختلاف عن الذوات الكولونيالية ورفضه الإدماج ضمن البُنيات التوحشية، الذي أقصاها الأمير من وجود الجزائريين ومن وجوده الشخصي، رغم أنه قد لاقى مرارة المنفى والبعد عن الأرض الذي قال عنه سعيد أنه واحدا من المصائر الأكثر حزنا، حيث تحول النفي من عقوبة مختارة بعناية وشكل حصري لأفراد محددين، إلى نوع من العقاب الوحشي لجماعات وشعوب بأكملها. (سعيد، 2003، ص.60)

تصبح هذه الحالة من أهم موضوعات الثقافة الإمبريالية، التي أبدتها فرنسا بكل وضوح مع الأمير حينما يحين للوضوح مقام في السياسة الكولونيالية الفرنسية، من خلال التصرف الذي أظهره الكولونيل (أوليفيان) لاستطلاع أحوال الأمير، وأظهر له أن الحكومة الفرنسية لا تريد عودته إلى الجزائر بالمطلق ولا ضرورة في أن يتراجع الأمير في ميثاقه الذي قرر فيه اللا عودة إلى وطنه، وعرض عليه أوليفيان أن يحلف بالقرآن ليطمئن على سلطته الكولونيالية في الجزائر، وتأميمها لمصلحة الدولة الفرنسية. (الجزائري م. 1903،ص.09)

ما يثبت على حسب قراءة سعيد للثقافة الكولونيالية الفرنسية، البحث على نموذج من الحوار المسند إلى نوع في القمع المحاججتي، لإخضاع الأمير للشروط الفرنسية بواسطة العداء الرادكالي الإقصائي، وفي عدم العودة وعدم إضفاء عليه شرعية المسرود التام داخل الثقافة الأصلانية والمقاوماتية، وبالتالي توفير الجهود اللازمة لحجبه كمسرود من ثقافة التحرر والتحرير، حيث "طُلب من أوروبا والغرب أن تأخذ الآخر على محمل الجد [كون] التابع والمختلف تكوينيا أنجز على حين غرة فصاحتهما المتفجرة في الموقع ذاته من الثقافة الأوروبية، ذاك الذي شهد من قبل اعتماد الصمت والامتثال لإخماد ثورة التابع و المختلف". (سعيد، تعقيبات على الإستشراق، 1996، ص.90)

إن تحليل مواقف الأمير من وجهة نظر إدوارد سعيد لا يتوقف عند هذا الحد،بل يُبنى هذا التحليل على رابطة عضوية لا تنفصل علاقاتها ومساحاتها المقاوماتية مع الثورة التحريرية الكبرى،

التي أمدتها ثقافة الأمير بالاستمرارية والموقع الثابت الذي لا يتزعزع في الدفاع عن الوطن والعرض، عن طريق الانتباه إلى المعاني الكبرى التي حفل بها السجل الثقافي الجزائري من تاريخ ودين ولغة، والتي شكلت تحديا لحالات البكم التي فرضها دوماس وبوغو على أرض الجزائر، بدرجات عالية من الإبادة والتنكيل والحرق والمسح، ليجد تعريفا آخر للجزائريين لا يخرج من الافتراضات الإيديولوجية القائمة على الإنكار والتنكر للمكون الاجتماعي والثقافي الذي لازم الجزائريين قرونا خلت، غير أن النضال استمر من مقاومة الأمير إلى ثورة جبهة التحرير في وحدة تكاملية منسجمة في المبادئ والأهداف،يقول سعيد في هذا الأمر: "أن المقاومات العظيمة (...) تقفت أثر تاريخها عائد إلى أول من قاوم قدوم الرجل الأبيض، هناك استمرار في المقاومة، مثلا (**جبهة التحرير الوطني**) الجزائرية التي هزمت الفرنسيين ونالت الاستقلال في عام (1962م) رأت نفسه استمرار للمقاومة التي بدأت في عام (1830) على يد الأمير عبد القادر في الجزائر، لقد نظروا إلى أنفسهم كجزء من التاريخ نفسه". (سعيد، القلم والسيف، 1989، ص. ص.65 ،66)

الأشرف ذلك البعد السياقي الذي فتح إمكانات جديدة ربما كانت خفية في منظور التاريخ الكولونيالي الفرنسي، أو ضمن التاريخ التحرري المقاوماتي الجزائري، وهو يصف شراسة الضباط الفرنسيين في الإبادة والتدمير، ويشير سعيد إلى أن الأشرف" أوضح حقيقة الجهود الفرنسية خلال العقود الأولى والتي تجاوزت هدفها،وهو _**إخماد المقاومة الجزائرية**_بمدى واسع واكتسبت المقام المطلق الذي يتمتع به كمثال أعلى". (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 1989، ص.241)

يؤكد الأشرف هذه الاستمرارية التي أوضحها سعيد من خلال توضيح أصالة مقاومة الأمير وارتباطها طوعا بذلك التراث الثقافي المتنوع وبانتمائها إلى أولئك الأصلانيين المحليين من الفلاحيين والناس البسطاء، الذي منحتهم اتساع الرقعة الجزائرية ذلك الحضور الواعي بالمصير والمآل الذي يكرس فلسفة الدولة والسلطان والسيادة والنفوذ، والتي أراد لها (بيجو) وأتباعه أن تباد نهائيا لتستبدل بتموضع فرنسي جديد ضخم يدخل ضمن المناطق المدرجة في الأقاليم الكولونيالية الفرنسية، وعن نزاهة مقاومة الأمير يقول الأشرف: "إن مقاومة الأمير عبد القادر الذي وحد كلمة الفلاحين في غرب البلاد وفي ولاية الجزائر، وقاد كفاحهم ضد الاحتلال الفرنسي وضد الإقطاعيين، وبعض الأئمة الموالين لفرنسا،هذه المقاومة كانت ثورية من وجهتين: أولا، لأنها تهدف في نظر الأمير عبد القادر، إلى تحرير التراب الوطني بتعبئة طاقات الشعب ليخوض غمار الحرب،وليس إلى ذلك سبيل إلا بالمبادرة لتأسيس دولة ذات سيادة، ثانيا، لأنها تهدف إلى القضاء على السلطة الغاشمة،

عدوة الشعب والمجتمع، تلك السلطة التي تمثلت في الأسر الغنية الكبرى الموالية للاستعمار..." (الأشرف، 2007، ص.46)

قد كان هذه القراءة من مصطفى الأشرف لمسار مقاومة الأمير وأثرها في بناء الأمة وبروز الكيان الجزائري،ردا عنيفا على سياسة الأرض المحروقة التي طبقها بيجو على كامل الجزائر، في إطار هذه الرؤية تتوحد نظرة إدوارد سعيد ومصطفى الأشرف في قراءة الأبعاد الكولونيالية، وتترجم في الوقت نفسه، جملة من العلائق النفسية والعقلية للإدارة الكولونيالية الفرنسية، التي فصحت عن رغبتها في امتلاك الأرض والإنسان وإعادة ترجمتهما في امتلاك جغرافي ونزاع سياسي.

يذهب إدوارد سعيد إلى أن قراءة التجربة الأميرية في المقاومة والتحرير، قد أفرد منهجية تاريخية وحضارية لها من الأبعاد الإنسانية الواعية بحقيقة الآخرين ما يؤسس إلى دراسة وفهم جدلية الأنا والآخر في نطاق الحرب أو السلام، واستيعاب الحقائق الجوهرية للتمايز بين الشعوب،وبإدراك ثاقب إلى أن الحقيقة الثقافية والتعليمية والعلمية والتوعوية، بمثابة حجر الأساس الذي تتشكل على وفقه المقاومة، وتضمن الانتصار الدائم في تجارب كفاحية تالية، قد صاغها الأمير في مشروع مقاومته وثقافته، وصاغتها جبهة التحرير في ميثاق إعلان الثورة والتحرير، لتبقى أسئلة الثقافة والمقاومة وأسئلة لثقافة والإمبريالية، مستمرة في مقاربة الأهداف والصور والنتائج، والمراهنة على فرادتها ورمزيتها وحضورها، خاصة حال النظر إلى مقاربة أعمال كامو بأعمال الأمير، وعلى أي أساس بنى إدوارد سعيد هذه المقارنة؟

قد أنتج سعيد في مشروعه الثقافة والمقاومة أسسا جديدة لقراءة المواقف والمواقع الثقافية، وتبيان حالات السارد، وطبيعة الخطاب بمسروده الذي تعانق مع رموز دلالية لها من السلطة والهيمنة ما يبين نية المواقف ومقصد المواقع، ويقول في هذا الأمر أن: "الشعوب الوطنية شعرت تاريخيا بأنفسها وهي تكتنف بالغزوات والشعوب القادمة من الخارج لتستولي على أرضهم وتستقر فيها وتفعل بها ما تشاء، عبر تلك المراحل الأولى تلك،أعتقد ان المقاومة كانت تعني دائما الصمود والقتال". (سعيد، القلم والسيف، 1989، ص.146)

كما أن قراءة الوعي الفرنسي من داخل أزماته التاريخية يشار إليه في منطق الثقافة الإمبريالية على أنه احتيال أنطولوجي في نفي الاختلاف والمغايرة، أو هو تحدي مناهض لكل من يتولى الدفاع بالثقافة الأصلانية التي أعطت لأراضيها صيغة تمثيلية في الأدب والشعر كمواقف سياسية

واجتماعية. لأن القدرة التي يمتلكها الأمير في تصوير الأحداث ووصفها بدقة، يجعله أن يكون شاعرا ينظم كيف شاء أدب مقاومته للكولونيالية، وحبه للأرض الجزائرية التي كانت أساسا لكل مفخرة في شعره الذي يلتمس فيه بوادر الفخر والاعتزاز بالدين والأصل والوطنية، من هذا المنطلق "تصاعدت أنفاس الأمير شعرا بطوليا وارتسمت مواقفه قصائد معبرة نستشف من خلالها القوة لا الضعف في ثورة الأمير، والإقدام لا يعرف الإحجام، ومن هنا لا نلمس في شعر الأمير جانب المأساة بقتلاها وجرحاها، بالمشردين تطاردهم الجيوش الفرنسية في كل شبر من أرض الجزائر". (السبع، ص.70)

يتعانق إذن الأدب بالسياسة وتتموقع السياسة ضمن الأدب في سياق الطاقة الروحية التي تميز بها الأمير كبطل عسكري وقائد روحي له من الخطابة ما جعله يتجاوز تلك الإخفاقات التي صنعتها فرنسا وتورط فيها الوضع القبلي المحلي آنذاك، معيدا بهذا التجاوز ترجمة تاريخ الجزائر وأصلانياتها الثقافية والروحية التي لم ينفصل عنها روحيا، رغم المنفى الذي أشحنه في الوقت نفسه بتلك الكتابة الحضورية التي فجرت عوالم الوطن الرمزية،وفسحت للبنى المؤسسية في فرنسا (**الكولونيالية**) والآستانة (**العثمانية**)، ودمشق (**العربية**)، لأن يكون للجزائر مكاناً واعياً، عقلانياً، تعريفياً، هوياتياً، أصلانياً، والقول في أن الشخص إذا خرج عن المكان فإنه سيترجم هذا المكان إلى روابط ثقافية متعددة لها من التفاعل و الحوار وأسر الآخرين، ما يفجر امتيازات جديدة للمقاومة والنهوض، أثبته الأمير على الدوام أن (**الجزائر**) ليست خارج المكان، وليست خارج الخطاب، وليست خارج مسرود التحرر والتحرير، وليست خارج مجال التعريف، لتغدو لغة التخاطب إلى غاية 1954م، حيث أصبح اسم (**الجزائر**)، اسما مركزيا في الثورات التحررية والمنظمات العالمية، ليس بمثل ما أقصاها كامو من روايته وأعدمها في الطاعون، وجعلها في الغريب صماء وبكماء. (كامو، 1982،ص.42) الذي أراد كامو إخراجه من الحيز ومن الوعي وعدم الاعتراف به إلا في الطاعون وجعله أصماً وأبكماً وإرهابيا في روايته(الغريب).

خاتمة:

اكتشف إدوارد سعيد في قراءاته لمقاومة الأمير عبد القادر ومقارباته بأنساق كتابية أجنبية على خلفية الاحتلال الفرنسي للجزائر أبعادا مهما في نظرية الثقافة والإمبريالية ونظرية الثقافة والمقاومة والتي تمثلت فيما يلي:

أولا/ شكلت مقاومة الأمير عبد القادر في نظر إدوار سعيد تلك الترجمة الثقافية الواسعة التي حولت الثقافة الجزائرية إلى مقاومة أصلية، بحثت من خلالها على معاني عدة للوعي وللشخص، وحددت معالم المكان الذي سعى المشروع الإمبريالي الفرنسي إلى امتلاكه، سرعان ما أدركت هذه المقاومة الأنساق المعرفية والإستراتيجية التي يحملها الكيان الجزائري كدولة من خلال محافظته على حدوده الجغرافية حماية أصلانياته التاريخية.

ثانيا/ يرى سعيد أن الثقافة والإمبريالية ومشروعها الجغرافي والثقافي قد آل في الجزائر إلى الفشل، رغم التعزيزات التي قدمتها الإدارة الفرنسية، لتفاجأ بمشروع مقاوماتي من طرف الأمير عبد القادر الذي وضع خططه الإستراتيجية بناءا على فرادة الرمز الدولة وسياسة السلطان التي اعتمدها في الكثير من المواقف بينه وبين الفرنسيين، وتصديه الحالم للأزمات والصدمات التي أوقعته فيها الظروف المحلية المعقدة والخارجية المتكالبة عليه، كقضية القبض عليه ونفيه خارج الجزائر دلالة قوية على فشل إدارة (دوماس وأولفيان) في مواجهة مقاومة الأمير عبد القادر.

ثالثا/ يقارب سعيد في قراءاته النقدية بين التجارب الثقافية المقاومة من خلال قراءته للتراث الثقافي للأمير حيث شكل شعره خلاصة تجارب قوية بينت أهمية الظرف المكاني والروحي الصوفي النسكي الذي استهل بها الأمير سياسته الثقافية لمواجهة فرنسا في المنفى بالطرق الواعية التي لا تقصي الآخر رغم الاختلاف معه في الثقافة والملة، وبين الإستخطاطات الإنشائية للتجارب الثقافية الإمبريالية المتمثلة في كتابات كامو، التي راهنت على إخراج الجزائريين من المكان، وعدم الاعتراف بهم إلا في الطاعون والجحيم.

رابعا/ أعطت هذه المقاربة مدى الأثر الذي حققته مقاومة الأمير في انتصار جبهة التحرير عام 1954م، حيث أثبت هذا التواصل السردي نوعية الخطاب المقاوماتي الذي انطلق منه الكفاح الجزائري لتدشين لحظته التاريخية المعاصرة، ومدى تعانق وتلاحق الأجيال بالمقاومات السابقة التي أعطت التحولات الجذرية لمسألة جلاء قوات الاحتلال نهائيا.

الهوامش والاحالات:

(1) تعني المحلية، والتي تقوم على اعتقاد أن السكان المحليين أو الأصليين في منطقة ما أتقياء لم يداخلهم الفساد قبل وصول أولئك الأجانب الذين دمروا الفردوس المحلي الأصلي، وغالبا ما تكون المحلية مرتبطة ذلك الارتباط الوثيق بالقومية السياسية والأصول الدينية، حيث تتطلع إلى التطهر من كل تأثير أجنبي ومحاولتها استعادة النقاء الأصلي.

(2) هو عبد الرحمان بن الحسن الجبرتي الحنفي صاحب الكتاب الموسوعي الموسوم بـ: عجائب الآثار في التراجم والأخبار المتكون من أربعة أجزاء كاملة، يقدم فيها الجبرتي تاريخ مصر الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وجاءت أخباره موجزة مسترسلة وافية وشاملة ودقيقة، لأنه أدرك أهمية علم التاريخ وانه المقياس الحقيقي الذي تعرف به قوانين الأمم وحقيقة الشعوب، في قراءة متميزة وجديرة.

(3) سلم الأمير نفسه للسلطات الفرنسية سنة 1847م، بعد الحصار الذي قامت به الجيوش الفرنسية من جهتي الحدود الجزائرية والمغرب، حيث أرسل إليه الجنرال لاموسسير رسوله الجنرال دوماس المتقن للعربية ففاوض الأمير، واشترط هذا الأخير سلامته وسلامة من معه من أسر ووزراء وضباط واتفق معهم على ان يخرج إلى عكا او الإسكندرية، وان يكون كل من بقى في البلاد آمنا، لكن السلطات الفرنسية خدعته وهو في المركب الحربي فنقلوه ومن معه إلى (طولون)ثم إلى (امبواز)، ثم إلى (بوردو) ثم (نانت) ثم أعادوه إلى (امبواز)حيث زاره نابليون الثالث وأهدى له سيفاً مرصعاً و أخبره بطلاق سراحه، فخرج من باريس مُتجهاً إلى (الأستانة) وبعدها إلى (دمشق)حيث شكلت منفاه الدائم . ينظر: نزار أباظة. (1414_ 1994).*الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد*: دار الفكر المعاصر، دار الفكر (ط01)، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا. ص13.

(4) الجنرال دوماس هو من حاور الأمير في مقترحات الشروط الفرنسية لاعتقاله ونفيه، كان متقناً جدا للعربية، له كتاب شهير بعنوان:

(5) DE L'ALGERIE (Tell_ Kabylie_ Sahara), Librairie Hachette, PARIS, 1853

قائمة المصادروالمراجع:

1. إدوارد سعيد .(2003) . *الآلهة تفشل دائما* .ترجمة:حسام الدين خضور، دار التكوين: دمشق، سوريا.
2. إدوارد سعيد .(1989) . *الثقافة والإمبريالية* (ط .02)ترجمة: كمال أبو ديب : دار الآداب، بيروت، لبنان
3. إدوارد سعيد .(1989) . *القلم والسيف* (ط .01) ترجمة: توفيق الأسدي، دار كنعان للدرسات والنشر.: دمشق،سوريا.
4. إدوارد سعيد .(1996) . *تعقيبات على الإستشراق* (ط.01) ترجمة: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر : بيروت، لبنان.
5. ألبير كامو .(1982) . *رواية الغريب* المكتبة الثقافية: بيروت، لبنان.
6. السبع ,ع .ا . *الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه* .مؤسسة البابطين للإبداع الشعري(.دط)(دم).
7. عبد القادر بن محي الدين الجزائري. 1425 هـ، 2004م . *المواقف الروحية و الفيوضات السبوحية* (ط01)، المجلد ج .(01) دار الكتب العلمية: بيروت ،لبنان.
8. عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح .(1996) . *أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد* (ط01) دار الغرب الإسلامي: .بيروت، لبنان
9. عشراتي سليمان .(2009) . *الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز و الريادة* (ط03) .دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع :وهران،الجزائر
10. محمد ابن الامير عبد القادر الجزائري .(1903) . *تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر* (دط) ، ج .(02) : المطبعة التجارية.الإسكندرية.
11. مصطفى الأشرف .(2007) . *الجزائر :الأمة، المجتمع* : .دار القصبة .الجزائر.
12. نزار أباظة. (1414_ 1994). *الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد*: دار الفكر المعاصر، دار الفكر(ط01)،بيروت،لبنان، ،دمشق ،سوريا.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):

غانم جويدة. (2021). دور مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في إستراتيجية المقاومة عند إدوارد سعيد. *آفاق فكرية*، سيدي بلعباس (الجزائر)، *9* (3)، 569-583 ؛ رابط المجلة *https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396*